التاريخ الإسلامي وأطفالنا

محمد بسام ملص
عمّان ــ الأردن

ملخص

يطرح البحث عدة أسئلة عن كيفية **تعامل** « **الكُتّاب** » **مع المادة التاريخية الموجهة للأطفال** ، كما يثير موضوع **تعامل** « **المعلمين** » **مع هذه المادة في المدارس** .

اختار الباحث عدة نماذج في فترات زمنية مختلفة : خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وموقفين في خلافة هارون الرشيد ، وأحد الأمراء ، وفترة خلافة المماليك والعثمانيين ، ومساهمات ثلاثة علماء خلال ازدهار الحضارة العربية الإسلامية .

اتسمت النماذج المختارة ، باستثناء مساهمات العلماء ، بمغالطات تبين عدم التمحيص والتدقيق في المصادر التاريخية ، كما تُظهر التجني على تاريخ هذه الأمة ، وتركز على الجوانب السلبية .



التاريخ الإسلامي وأطفالنا

محمد بسام ملص

نحن **أمة أعزنا الله بالإسلام** . فكان تاريخنا الإسلامي صفحات خالدة سطر حروفها السلف الصالح الذين آمنوا برسالة الإسلام ، فحققوا تلك الرسالة عملا وعلما .

لقد كان التاريخ الإسلامي ، وما يزال وسيبقى إن شاء الله ، مصدر افتخار لنا . فهو الذي ينير الدرب لنا . ولعلنا نكون ، من دون أمم الأرض قاطبة ، الأمة التي تنظر إلى تاريخها بمنظار المستقبل . **فما سجله الأجداد الصالحون بإيمانهم وجهدهم وعزيمتهم هو ذخيرة تمدنا بالعون لأيامنا القادمة التي نسأل الله جلّت قدرته أن يجعلها أيام عز .**

إن حياة الرسول ﷺ والصحابة وما حققه الخلفاء الراشدون ، على سبيل المثال ، مصباح هدى ينير لنا الطريق . لن نُذْكَر ، ولن نتبوأ مركزا تبوأه سلفنا الصالح بين الأمم إذا لم ننصر هذا الدين . وصدق الحق حين قال في محكم التنزيل : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. ﴾[1] .

فكيف نعد الأجيال القادمة للمستقبل ؟ ماذا نقدم لهم من تاريخ أجدادهم الصالحين ؟ ماذا يقرأون عن التاريخ الإسلامي ؟ ماذا نضع في الاعتبار ونحن نعيد كتابة الحوادث التاريخية ؟ هل نكتفي بسرد القوائع دون تمحيص واختيار ؟ **كيف نتعامل مع المصادر التاريخية** التي تحتاج منا إلى قراءة واعية ، فهي تعتمد في كثير من موادها **على ما وراء الرواة** ، وليس على ما ذكره المؤرخون ؟

تلك بعض الأسئلة التي تطرح عندما يثار موضوع التاريخ الإسلامي في أدب الأطفال . ستحاول هذه الدراسة بعون الله أن تجيب على هذه الأسئلة . فنسأله العون والرشاد ، ونسأله أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه .

لا بد من الإشارة ، ولو بإيجاز ، إلى **موضوع التاريخ الإسلامي في مجال التربية** . إذْ أنّ ما يقدم للناشئة في أدب الأطفال لا ينفصل أبدا عما يقدم لهم في المدارس ، فالهدف واحد .

لنا أن نسأل كم هو عدد المعلمين الذين يقدمون مادة التاريخ الإسلامي لأبنائنا في مختلف المراحل الدراسية ، **بالأسلوب غير التقليدي** الذي يبتعد عن التلقين ؟ كم معلم يتعامل مع التاريخ الإسلامي **كمادة حية مؤثرة فعالة** ؟ هل استطاع المعلمون أن يستفيدوا من **نشاط الطفل التمثيلي** (child drama) في مجال التربية[٢] ، ليتمكن الناشئة من أن يعيشوا أحداث التاريخ ويتفاعلوا معها بحماسة وحيوية وعفوية وإيجابية ، بدل أن يكونوا مجرد متلقين سلبيين يصيبهم الملل وتناهم التثاؤبات والمعلم يشرح الدرس بأسلوب رتيب ؟

إنما أوردت نشاط الطفل التمثيلي على سبيل المثال لا الحصر كأسلوب لعرض المادة التاريخية ولتعامل الناشئة معها . والمعلمون بحكم خبرتهم واطلاعاتهم ، لا بد أن يكونوا على علمٍ بأساليب متنوعة تساعدهم على تقديم مادة التاريخ بطريقة مشوقة واعية[٣] . وإذن فنحن لا نريد أن يقدم التاريخ لناشئتنا مادة فُرضت عليهم ؛ يدرسونها لأنها فقط مادة في المناهج الدراسية .

فإذا وعينا ذلك جاز لنا أن ننتقل إلى **الكتاب الجيد** الذي نطمح أن يقرأه الطفل خارج النطاق التعليمي (المدرسي) في مادة التاريخ الإسلامي . فإذا كانت تهيئة الطفل سليمة ، وإذا استطاع أن يتعامل مع تاريخه بتقدير وإعجاب وحب في المدرسة ، فإنه سيتعامل مع المادة التاريخية في القراءة الترويحية بإيجابية وحماسة .

ولكن هل نقدم لأطفالنا تاريخنا ليتعلموا ويستفيدوا ويعتبروا ويتهيأوا للمستقبل ؟ هل ندعوهم إلى استكمال البناء الذي أسسه السلف الصالح على التقوى والإخلاص والعمل الصالح والعلم النافع ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نورد الآن عدة نماذج عن المواد التي تطرح لأطفالنا في أدبهم . **إن النماذج المختارة تبين ما يجب وما يُمنع تقديمه إلى أطفالنا** . وهي تجيب على الأسئلة المطروحة في مقدمة هذه الدراسة .

* * *

عثمان بن عفان :

فلنتأمل معا هذين الكتابين عن فترة خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

١ ــ « **أبو ذر الغفاري** » كتاب من سلسلة أبطال العرب ، شارك فيها « مجموعة من خيرة الأساتذة والباحثين والمبدعين العرب »[٤] **يتقدمهم في القائمة عز الدين إسماعيل** . لقد أقدمت دار النشر على إصدار هذا الكتاب ليظهر الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري « كمنارة هادية ، للانسانية جمعاء ، ولكل من رفع قضيته **كالآية فوق رأسه ، وانطلق لمواجهة القمع والقهر وكل صور وأشكال اضطهاد الإنسان** »[٥] .

هل يحدث القمع والقهر والاضطهاد في زمن الخليفة الراشد ذي النورين أمام سمعه وبصره ، بل وعلى يديه أيضا ، كما يصور الكتاب ؟ يبين الكتاب مواقف أبي ذر رضي الله عنه في مواجهة « **الانحراف عن العقيدة** »[٦] إبان خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه . ثم يعرض لنفي الخليفة المزعوم لأبي ذر مرة إلى الشام[٧] ومرة أخرى إلى الربذة[٨] .

يصور معدُّ الكتاب بطريقة مؤثرة الوضع البائس الذي ظن أن الصحابي الجليل أبا ذر قد وصل إليه . وهو وضع ليس له أساس تاريخي ، **بل هو من تصور من يجهل حقيقة الخليفة الراشد ويحاول النيل منه ومن الإسلام . فلنقرأ معا ما ورد في الكتاب .**

في منفى الربذة ... وتحت خيمة ممزقة مرقعة ... عاش أبو ذر أيامه الأخيرة هو وزوجه وابنه وابنته ...

وهكذا قضي على صاحب النبي ، وأحد المؤمنين الخمسة الأوائل ، والذي أسلمت قبيلة بأكملها وأعلنت الشهادة بين يديه ، قضي عليه ، أن يعيش في هذا المنفى ..

وبدأ عذابه الأكبر وهو يرى زوجه وولديه والجوع يطحنهم طحنا ، وهو لا يملك ما يدفع أنياب الجوع عنهم .

هل هكذا يعذب أبناء الذين آمنوا من قِبَلِ الذين استولوا على راية العقد وفردوا مظلتها فوق رؤوسهم ... لهب الشمس للمؤمنين ، وظلال القصور

للذين انقضوا على راية العقيدة ، بعد أن رفرفت ، وكانوا قبل أن ترفرف من ألد أعدائها ...(؟)

واشتد المرض بولديه وزوجه من فرط الجوع ... فحفزه هذا إلى الانطلاق إلى عثمان ، ليطالب بحقه في بيت مال المسلمين ...

ولكن عثمان رفض أن يعطيه شيئا من حقه من بيت المال ... ورفض أبو ذر كل العروض التي قدمها له من كانوا في مجلس عثمان .. وآثر العودة إلى خيمته سيرا على قدميه ... وهو الجائع العطشان شبه العريان[٩] .

أوردت تلك الفقرات لأدل على **الطريقة المؤثرة التي عرضت بها هذه المادة المشوهة المفتراة على الخليفة** .

ولا يكتفي مُعدُّ الكتاب بهذا ، بل إنه **يبين موقف معاوية بن أبي سفيان المزعوم من الصحابي الجليل** . جاء في الكتاب .

« كان معاوية يتصرف كأنه يملك الأرض والمال والناس ... والمسحوقون والمعذبون ، أولئك الذين نصروا الدعوة من بداية خيط نورها الأول ، **كانوا أول من أنزل بهم معاوية الحرمان والعذاب ، بعد أن رفضوا رشوته** ، ورفضوا السكوت على الذي يفعله ... »[١٠] .

يلاحظ القارىء الكريم الأسلوب المؤثر الذي استخدمه مُعدُّ الكتاب دون تمحيص للرواية التاريخية والتحقق من صحتها . يتابع الكتاب عرضه لمادته بعيدا عن الحقيقة :

« فما الذي يفعله معاوية بأبي ذر(؟) إنه لا يستطيع أن يقتله ، ولا يرشوه ، ولا يهدده ... لقد جرب معه كل صور وأشكال التهديد والإرهاب والرشوة ففشل ... »[١١] .

٢ ــ « **عثمان بن عفان** » هو الكتاب الآخر الذي يعرض لمآثر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، **ولكنه لا يخلو من افتراءات** . جاء في الكتاب : **إيثار عثمان لأهله بالمناصب والخيرات والأموال**[١٢]؛ **سخرية معاوية بن أبي سفيان من أبي ذر وزوجته**[١٣]؛ استئثار ذوي قربى الخليفة وأقربائهم بذهب إفريقيا[١٤]؛ **شرب الوليد بن عقبة والي الكوفة الخمر**[١٥]؛ الفوضى والثورة التي حدثت قبل مقتل الخليفة

من تدبير بعض أقرباء الخليفة[١٦]؛ حاشية الخليفة التي أفسدت عليه أمره وقضت على حياته[١٧] .

أما الأمور الأخرى التي ما كان ينبغي على المؤلف أن يطرحها على الناشئة فهي : لجوء عمر بن العاص إلى الخليفة يمنع اختيار علي كرم الله وجهه كخليفة[١٨]؛ موقف عمرو بن العاص من الخليفة عثمان رضي الله عنه بعد أن عزله عن ولاية مصر[١٩]؛ حقد بعض القرشيين على بني هاشم لأن النبوة كانت فيهم[٢٠] .

هكذا نرى أن المؤلف ، رغم حرصه على إبراز مآثر الخليفة الثالث ، عرض أمورا هي من باب الافتراءات والحملات الشنيعة التي شنت على هذا الخليفة المظلوم .

وقد لا نجد فرقا بين ما يكتبه المستشرقون عن فترة خلافة عثمان رضي الله عنه وما يكتبه الكتّاب . فكلا الفريقين يشير إلى اتهامات وجهت إلى الخليفة هو منها بريء . فمن يقرأ Shorter Encyclopaedia of Islam « **موسوعة الإسلام المختصرة** » ، **على سبيل المثال ، يجد عجبا ويقرأ الاتهامات على أساس أنها حقيقة**[٢١] . ومن يقرأ العديد من الكتب الموجهة لأطفالنا عن ذي النورين يجدها تردد الافتراءات والمظالم دون تمحيص[٢٢] .

من يقرأ الأحاديث الصحيحة في فضائل الصحابة في كتب الحديث ، ومن يقرأ المصادر التاريخية العديدة مثل « **تاريخ الطبري** » و « **الكامل في التاريخ** » و « **البداية والنهاية** » قراءة دقيقة واعية ، ومن يقرأ الرد الشافي على الاتهامات التي وجهت إلى الخليفة في مصادر مهمة مثل « **العواصم من القواصم** » لابن العربي و « **منهاج السنة** » لابن تيمية ، من يقرأ هذه المصادر سيجد أن **الخليفة عثمان رضي الله عنه بريء من كل ما اتهم به**[٢٣] ، وسيجد أن **معاوية بن أبي سفيان ما كان يعامل الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري كما حلا للكتاب أن يبينه**[٢٤] ، وسيجد أيضا **أن الوليد بن عقبة الذي أمضى خمس سنوات واليا على الكوفة (خلال خلافة ذي النورين ، كانت سيرته سيرة وال يحرص على أمور الناس)** ما كان ليشرب الخمر ، وأن حادثة شرب الخمر هذه ملفقة عليه والشاهدان هما شاهدا زور ولكن الخليفة أقام الحد عليه[٢٥] .

إن قراءة المصادر التاريخية تحتاج إلى تمحيص وتدقيق . **فالمؤرخ للتاريخ الإسلامي في العصور المبكرة ما كان يروي بل ينقل الخبر عن الرواة** . استأنس هنا بما كتبه **محب الدين الخطيب رحمه الله ، عن تاريخ الطبري** :

... إن الطبري ليس هو صاحب الأخبار التي يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم ، وهؤلاء متفاوتون في الأقدار ، وأخبارهم ليست سواء في قيمها العلمية ، **ولا يتم اعتبار الطبري مرجعا في التاريخ إلا بإكمال المهمة التي بدأ بها ، وهي تقدير أخباره باقدار أصحابها** ،..

إن كل خبر في تاريخ الطبري ، بل كل نص يتناقله أهل العلم في أجيال الإسلام ، له عند أهله قيمة رفيعة أو وضيعة ، على قدر شرفه أو خسته بالرواة الذين يُنسب إليهم ذلك الخبر أو ذلك النص . فشرف الخبر في التراث الإسلامي تابع لصدق راويه ومنزلته من الأمانة والعدالة والتثبت . لذلك امتازت كتب سلفنا الأول بتسمية الرجل المسؤول عن أي حديث نبوي يوردونه فيها ، وبيان المصدر الذي جاءوا منه بأي خبر تحدثوا به إلى الناس(٢٦) .

هكذا فإن الكتّاب وهم ينقلون الأخبار عن المؤرخين دون تمحيص يقعون في **مصيدة الأخبار الكاذبة والملفقة** لأنهم لم يهتموا برواياتها .

إن فترة خلافة عثمان رضي الله عنه التي حدثت فيها الفتنة تحتاج إلى كاتب يدرك إنجازات هذا الخليفة وما لحقه من ظلم وافتراءات ليتحدث عن هذا الخليفة الراشد العظيم في كرمه وعطائه وسماحته وحيائه وتقواه وحزمه ، **دون أن يشير إلى أي افتراء** ، لأن مجرد الإشارة إلى التهم تعني أننا نشك في إنجازات هذا الرجل العظيم الذي مات ظلما .

أجد من الضروري ذكر الجانب الآخر فيما يتصل بما يقرأه الناشئة عن عثمان رضي الله عنه وعن خلافته . فقد عرضت بعض الكتب مادتها دون أن تشير إلى أية تهمة أو افتراء ألصق زورا بالخليفة الراشد . وكتاب « عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنه » لمؤلفه محمد موفق سليمه هو مثال جيد . قدم الكتاب فضائل عثمان ، **كما ذكر مؤامرة اليهودي المنافق عبد الله بن سبأ**(٢٧) **الذي لعب دورا حاسما في إثارة الفتنة**(٢٨) .

هكذا ينتبه الطفل القارىء إلى مكر اليهود وحقدهم على الإسلام ومحاولاتهم المستمرة لإثارة الفتن منذ أن بدأت أنوار الإسلام تشع على العالم لتنقذه من الضلال

والضياع . **فإذا كان اليهود يسعون جاهدين لإثبات حق وجودهم الباطل في الأرض العربية الإسلامية فيزيفون ويكذبون ويسرقون ويرتكبون المجازر ، أفلا نكون نحن ، أمة الحق والخير ، أولى بأن ندافع عن تاريخنا بدل أن نقدمه مشوها مليئا بأكاذيب وافتراءات ؟**

* * *

هارون الرشيد :

نقرأ مع الناشئة هذا الموقف الذي ورد على شكل طرفة : تحت عنوان « جزاء السخرية » :

« كان الرشيد يوما في نزهة .. وكان معه الفضل بن ربيع ، مر بهما رجل يركب حمارا ويجدّ في السير . **أراد الفضل أن يضحك الرشيد** ويسخر من الرجل فسأله : إلى أين يا هذا تسرع بحمارك ؟ توقف الرجل وقال : عيناي تدمعان دائما وأنا ذاهب أبحث عن طبيب يعالج هذا الدمع . قال له الفضل : فهل أدلك على علاج ينفعك ؟ قال الرجل : ما أحوجني إلى ذلك . قال الفضل : خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق السماء دقها جميعا وانقعها واشرب منها مرتين في اليوم . واتكأ الرجل على حماره وهو يحدق بالفضل ... **ثم ضرط ضرطة طويلة وقال للفضل : تأخذ هذه أجرة لوصفتك فان نفعتنا زدناك . وأخذ الرشيد يضحك ويضحك حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابته** »[٢٩] .

ونحن نسأل من بسّط هذا الكتاب ليقرأه الناشئة : « ماذا أراد من هذا الموقف ؟ » إذا كان القصد هو إثارة عنصر الضحك عند كل من يقرأه ، فإن هناك أمورا كان ينبغي أن ينتبه إليها . أراد الفضل إضحاك الرشيد والسخرية من الرجل . فجاء المزاح على حساب الشخص . والأهم أنها سخرية . يقول الحق تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم**﴾[٣٠] . فهل يعقل أن يضحك الرشيد من سخرية الفضل من الرجل **وهو المعروف بتقواه ؟ الموقف يبتعد كثيرا عما نريد أن نقدمه لأطفالنا عن الرشيد . فلا بد أن يعرف أطفالنا أن الخليفة هارون الرشيد كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزوا وحجّا**[٣١] . أما غزواته فمنها فتح هرقلة[٣٢] . ومنها موقفه الحازم من ملك الروم نقفور عندما نقض العهد مع المسلمين ، فكتب إليه رسالته المعروفة[٣٣] .

نريد أن **يقرأ الناشئة عن الرشيد الذي يكرم العلم والعلماء** . ها هو يقوم بنفسه بصب الماء بعد الطعام على عالم ضرير استدعاه ليسمع الحديث(٣٤) . هو الرشيد الذي كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم . **وإذا ما حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحجج ثلاثمائة بالنفقة والكسوة**(٣٥) .

* * *

أحد الأمراء :

أعرض أعرض هذه الحكاية الموجهة إلى الناشئة تحت عنوان « **حكايات رمضانية** » :

« كان أمير أحد البلدان يتفقد رعاياه ، فوجد غلاما صغيرا منهمكا في القراءة فسأله قائلا : ماذا تقرأ يا غلام ؟

أجاب الغلام : أقرأ القرآن الكريم .

فقال الأمير : اقرأ يا بني

فقرأ الغلام : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ .

فاستبشر الأمير ، وأراد أن يكافىء الغلام فأعطاه دينارا ذهبيا . **لكن الغلام رفض** وامتنع عن قبول الدينار .

فسأله الأمير : لماذا ترفض الدينار ؟

أجاب الغلام : لئلا يضربني أبي .

قال الأمير : قل لوالدك إنها عطية من الأمير .

فقال الغلام : لن يصدقني .

تعجب الأمير وقال : ولماذا لا يصدقك يا بني ؟

أجاب الغلام : **سيقول لي .. هذه ليست عطية الأمراء** .

فأعجب الأمير بذكاء الغلام وأمر له ولوالديه بمكافأة كبيرة ، وأمر بتعليم الغلام على نفقته الخاصة »(٣٦) .

تُظهر الحكاية حرص أمير البلاد على رعيته وكرمه وحبه للعلم . **إلا أنها تحمل في ثناياها أمورا كان الأجدر بمن اختارها وقدمها للقراء أن ينتبه إليها قبل نشرها** . إن غلاما يقرأ القرآن ويلقي على الأمير كلمات الحق : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾(٣٧) ، لجدير أن يكون على خلق حسن ونفس كريمة عزيزة . **إلا أننا نراه يطلب من الأمير بطريقة**

ذكية مكافأة أكثر من الدينار . هل يستحق الغلام المكافأة الكبيرة التي أمر بها الأمير له ولوالديه ؟ الجواب ذكي **ولكنه يتضمن تلميحا خفيا إلى الأخذ ، وهو موقف غير تربوي ما كان يجب تقديمه** . كان يكفي الأمير أن يثني على الغلام ويبارك له في علمه وحسن خلقه ، بدل أن يمنحه المال الكثير . ولنا أن نسأل : هل أعطى الأمير من ماله الخاص أم من بيت مال المسلمين ؟ إن هذا الموقف يقع ضمن مقولة التفضل « أعطه يا غلام ألف دينار » التي يطالعها الناشئة فيما يقرأون عن التاريخ الإسلامي[٣٨] .

* * *

المماليك والعثمانيون :

يتناول

يتناول كتاب « رجال مرج دابق » المماليك وهم على أعتاب زوال دولتهم التي استمرت قرابة ثلاثة قرون ، لتأتي دولة العثمانيين . والكتاب من سلسلة « مكتبة التاريخ » التي تصدرها دار الفتى العربي في لبنان ، وهي دار متخصصة في نشر أدب الأطفال .

و« مكتبة التاريخ » سلسلة من الكتب التي تلقي ضوءا جديدا على التاريخ العربي ، فتقدمه بوصفه **مسيرة مقاومة للاحتلال الأجنبي والسيطرة الخارجية** . والتاريخ في هذه السلسلة ليس تاريخ الحكام بل هو **تاريخ الشعوب** في تعاملهم مع حياتهم وفي مواجهتهم للأخطار التي تتهددهم .

والتاريخ هو ذاكرة الشعوب ، وإعادة كتابته هي اختصار للتجارب الإنسانية وحفظ لخبرتها . ومكتبة التاريخ تطمح أن تكون كتابة جديدة للفتيان يرون فيها صورة للشعب الذي ينتمون إليه ، صورة صادقة لنبض مقاومته وإرادته التي لم تنكسر أمام ظالم أو عدو[٣٩] .

ومادة الكتاب زاخرة بالأحداث المشابكة والشخصيات التي تظهر على الساحة . هذه المادة ، كما عرضها الكتاب ، تصعب على القارىء الفتى .

إن تقديم المادة في أدب الأطفال يتطلب معرفة مرحلة القارىء العمرية . وما دام القارىء هنا هو **الفتى** ، كان لا بد من مراعاة تبسيط المادة واستخدام لغة سهلة مناسبة ، فالمؤلف ، على سبيل المثال ، يقدم العديد من الأحداث والشخصيات على **طريقة اللقطة**

المعادة[٤٠] (flashback) لتتداخل الأحداث زمنيا . هذا يؤثر تأثيرا غير محمود على متابعة القارىء .

والكتاب هو محاولة لالقاء الضوء من جديد على التاريخ العربي تقدمه الدار لتبين للقارىء الفتى أن **دولة المماليك والدولة العثمانية تقعان تحت بند الاحتلال الأجنبي والسيطرة الخارجية** .

يتابع القاريء ، وهو يجري وراء الأحداث المتدفقة ، وجهة النظر التي أراد الكتاب أن يبينها . **فالمماليك عبيد انتزعوا الملك من سادتهم العرب**[٤١] ، **وأسسوا دولتهم بالخيانة**[٤٢] . **قانونهم أن البقاء للأقوى ، فكل شيء مباح ومستباح دفاعا عن النفس أو حماية للعرش أو حفاظا على الثروة الحرام**[٤٣] . **لا يخلصون لعهد ولا يحافظون على وعودهم ويخونون بعضهم بعضا**[٤٤] . **إن سلاطين المماليك قد أذاقوا العرب في مصر والشام وجزيرة العرب العذاب**[٤٥] **ثم أضاعوهم**[٤٦] .

وجهة النظر هذه هي نفسها التي توجه إلى الدولة العثمانية باعتبارها دولة محتلة احتلت البلاد العربية ، ثم أغرقتها في عصر الجهل والفوضى الإدارية والنهب والقتل والتعذيب[٤٧] .

وأورد بعض الفقرات التي جاءت في الكتاب حرصا على موضوعية العرض ، وأترك للقارىء أن يدرك وجهة النظر تلك .

فقد جاء :

« لكن العربان لا يهدأون ، فهم يأنفون من الخضوع للمماليك ، لأنهم عبيد أرقاء انتزعوا حكم البلاد من سادتهم العرب ، ولن يهدأ العربان إلا إذا استردوا حكمها »[٤٨] .

وذكر الكتاب عن دولة المماليك :

« **دولة عاشت ــ حتى ذلك التاريخ ــ ٢٦٧ سنة كاملة ــ** قانونها الوحيد أن البقاء للأقوى ، فكل شيء مباح ومستباح دفاعا عن النفس أو حماية للعرش ، أو حفاظا على الثروة الحرام ، لذلك زين المماليك أسوار القاهرة برؤوس القتلى ، وزخرفوا أبواب دمشق بأجساد المكبلين ، ونثروا أشلاء الموسطين أمام أشبلة حلب ، وبعثروا بقايا المخوزقين في أسواق غزة »[٤٩] .

كذلك تحدث الكتاب عن دولة المماليك :

« انتهى الزمن السعيد ، ضاعت الدولة التي بنيت بالسيف والرمح وأجساد الموسطين والمكبلين والحنث بالقسم ببيع الأبناء وخيانة الأصدقاء والتآمر على الأوطان .. ضاع المماليك ولكن بعد أن أضاعوا العرب .. »[٥٠] .

وورد في الكتاب أيضاً :

« تخصص المماليك في أمر الحرب والضرب ، وتركوا لأهل البلاد إحياء موات الأرض ، يحرثون ويبذرون ويحصدون ، ويخرب المماليك ويدمرون ويسطون ، يبني أهل البلاد القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والترب ، ويغزو المماليك ويكرون ويدافعون » .

« يحترف أهل البلاد تكفيت النحاس وتذهيب الخشب ونقش القباب ، **ويتخصص المماليك في القتل والنهب والسلب** »[٥١] .

يقرأ الفتيان عن الدولة العثمانية وهي تضع حدا لدولة المماليك : « آن للغوري أن يحصد الشوك الذي بذره منسبقه من السلاطين ، وسقاه هو ورعاه ، فتفرخ حوله ، آن لجيشه المنقسم الضعيف أن يواجه جيشا موحدا قوي التسليح والتنظيم . وآن لدولته الشائخة التي يرفع رعاياها أكفهم إلى السماء داعين الله ــ ليل نهار ــ أن تزول ، أن تتصدى لدولة فتية ترفرف أعلامها فوق جيوش لا يحصدها بصر ، **ويقود سلطان طموح ، يعتبر الرحمة فضيلة تافهة ، ويؤمن بأن الأخلاق والقيم عملة زائفة** ..»[٥٢] .

كما يقرأ الفتيان عن الدولة العثمانية :

« أربعون عاما فقط ــ بعد يوم مرج دابق ــ كانت كافية لكي **تمتد سنابك الخيول العثمانية فتدوس الوطن العربي كله** » ...

« ثلاثة قرون ستمر بعد « يوم مرج دابق » ، لا تشرق فيها الشمس على العرب الذين ازدهرت حضارتهم حين تفاعلوا مع العالم ، ترجموا أدبه وفلسفته وعلمه ، وصدروا إليه أدبهم وفلسفتهم وعلمهم ، ثم جاء **الظلام العثماني** فعزلهم عن العالم »[٥٣] .

نقرأ ، كما يقرأ الفتيان ، عن « نواب السلطان » .

« وقد نهبوا كلهم ، سلبوا وقتلوا وعذبوا . كما كان المماليك ينهبون ويقتلون ويعذبون »[٥٤] .

* *

إن الموضوعية والأمانةالعلمية تقتضي أن نقول إن دولة المماليك والدولة العثمانية لم تكونا من دون ممارسات خاطئة لا يقبلها الإسلام . ولكننا لا ننظر إلى الدولتين كما قدمهما الكتاب . إذ **أن الاخوّة في العقيدة لا يمكن أن تعتبر الدولتين احتلالا أجنبيا وسيطرة خارجية** ، كما يجب ألا تعتبرهما ضمن إطار الظلم والعدوانية .

فإذا كان المماليك غير عرب ، فهذا ليس حجة عليهم . وإلا فكيف نحكم على **صلاح الدين الأيوبي** الكردي الأصل الذي حفلت حياته بالجهاد لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ومواجهة الفرنج ؟ لم يكن صلاح الدين عربيا ، و لم يكن الإسلام دينا يقتصر على العرب ، بل هو دين البشرية . يقول الحق : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس** ﴾[٥٥] . لذلك فإن الفيصل عندنا هو الإسلام .

لقد **ظلم الكتاب** « **رجال مرج دابق** » **المماليك ظلما كبيرا وهو يقدمهم عند زوال ملكهم** . وإنصافا للحق نقول **إن المماليك هم الذين تصدوا بشجاعة لأمواج التتار المتتابعة . كما أنهم استطاعوا أن يضعوا حدا للفرنج الطامعين . إن عصر المماليك هو عصر انقاذ** . فقد انقذ المماليك الحضارة الإسلامية من الدمار التام على يد المغول . **كما أنهم أنهوا الحكم الصليبي في بلاد الشام وأحيوا الخلافة الإسلامية وجعلوا مقرها القاهرة**[٥٦] .

نقرأ عن **معركة عين جالوت** حينما **واجه المظفر قطز وعساكره التتار** ، فقاتلوهم قتالا عظيما ليكون النصر للإسلام وأهله[٥٧] . ونتابع مع الظاهر بيبرس مواجهته للفرنج عندما انتزع صفد ويافا والشقيف وانطاكية من الفرنج[٥٨] . وسط هذا الجهاد **يأمر الظاهر بيبرس بإراقة الخمور في البلاد وتهديد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل كما يأمر بإبطال المفسدات والخواطيء بالبلاد كلها**[٥٩] . وما أن يستقر الظاهر بيبرس في القاهرة ، حتى يتحرك إلى الجهاد بعد أن وصلته أخبار أعداء الإسلام من التتار والفرنج[٦٠] .

ها هو **السلطان قلاوون** يفتح المرقب سنة ٦٨٤هـ وهو حصن كان يضر بالمسلمين كثيرا[٦١] وسنة ٦٨٨هـ يأتي السلطان قلاوون بالجيوش المصرية إلى دمشق ، فيتجه نحو طرابلس ويحاصرها ويفتحها ، **وقد بقيت في أيدي الفرنج من سنة ٥٠٣هـ إلى ٦٨٨هـ**[٦٢] .

وفي عام ٦٩٠هـ نودي في دمشق للجهاد في سبيل الله إلى عكا ، فجاء **الملك الأشرف ابن السلطان قلاوون** من مصر بعساكره . وبعد حصار عكا ، دخل المسلمون الأسوار ،

فولّى الفرنج الأدبار ، وسلمت صور وصيدا قيادتهما إلى **الأشرف** . فأصبح الساحل كله للمسلمين بعد أن قُطع دابر القوم الذين ظلموا(٦٣) .

هذا **جانب من جهاد المماليك ومواجهتهم للقوات الأجنبية التي تقع فعلا ضمن الاحتلال الأجنبي والسيطرة الخارجية** والتي أرادت أن تنال من الإسلام وأهله . فهيأ الله للأمة الإسلامية قوادا وجنودا ، من غير العرب ، ليصدوا تلك الهجمات **ويقفوا سدا منيعا أمام خطرين كبيرين هما خطر التتار وخطر الصليبيين** .

أما على صعيد العلم ، فنقول **إن المماليك قد شجعوا اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم** ، حرصا من كثير منهم على تدارك النقص لكونهم غير عرب لا يجيدون اللغة مثل أبنائها(٦٤) . كذلك تميز **عصر المماليك بظهور الموسوعات الكبرى في الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ**(٦٥) .

فقد أنتج القلقشندي « صبح الأعشى » وابن منظور « لسان العرب » وابن تيمية فتاويه وابن خلكان « وفيات الأعيان » وابن كثير « البداية والنهاية » والذهبي « سير أعلام النبلاء » وابن تغري بردي « النجوم الزاهرة » .

كان النظام المملوكي في جباية الضرائب من الفلاح يتطلب مقدرة إدارية عالية وخبرة . كانت الحكومة المملوكية تصل إلى الفلاح مباشرة فضمنت للفلاح نوعا من الطمأنينة والاستقرار(٦٦) . كذلك ازدهرت الصناعة ، فقد بلغ عدد الصناعات في دمشق وحدها حتى أواخر عصر الدولة المملوكية مائة صناعة مزدهرة(٦٧) .

تلك مجرد أمثلة لمجالات الحياة المختلفة وكيف كان نشاطها خلال عصر المماليك . **وهذا يعني أن الأمور في ذلك العصر لم تكن أبدا كما صورها كتاب « رجال مرج دابق »**(٦٨) .

لقد ركّز الكتاب كثيرا على **الخيانات والمؤامرات** التي زعم أن المماليك حاكوها لبعضهم البعض ، وخاصة خيانة خاير بن سلباي(٦٩) وجان بردي الغزالي(٧٠) أما ما زعم من خيانة خاير للسلطان الغوري وانضمامه للعثمانيين في معركة مرج دابق ، **فهذا أمر لم تؤكده المصادر التاريخية التي** يعتمد عليها(٧١) **وما قيل عن خيانة الغزالي فأمر لا يتعدى التخمين**(٧٢) .

وذكر الكتاب أن اكتشاف فاسكو ديجاما لرأس الرجاء الصالح قد وجه ضربة قاسية إلى الدولة المملوكية(٧٣) . وهذا من الأمور المبالغ فيها إلى حد كبير . فقد كان وضع

المؤسسات المملوكية والاقتصاد المملوكي وضعا جيدا ، وما كان ليتأثر باكتشاف رأس الرجاء الصالح[٧٤] .

لم تكن دولة المماليك على حافة الانهيار عندما جاء السلطان سليم العثماني بل أن الوضع كان يختلف عن هذه الصورة . فقد كانت المؤسسات الإدارية المملوكية في وضع جيد . كذلك فإن أهل بلاد الشام ومصر قد مارسوا قسطا غير قليل من الحرية في تصريف شؤون البلاد ، **ولم تكن هذه الحرية للمسلمين فقط ، بل كان يتمتع بها ويمارسها أهل الذمة من اليهود والنصارى**[٧٥] .

أشار كتاب « رجال مرج دابق » إلى وجود نوع من الاتفاق بين سلطان المماليك الغوري والشاه إسماعيل ملك الصفويين[٧٦] . **وهذا ما دفع السلطان سليم ليواجه دولة المماليك**[٧٧] . **ولكن الحقيقة غير هذا** . لقد كانت الدولتان دولة المماليك والدولة العثمانية ، مسلمتين سنّيتين وكان هذا سببا أساسيا للتقريب بينهما وإزالة أسباب العداء[٧٨] .

كانت مدن الشام ومصر تبتهج وتتزين عند كل انتصار يحققه العثمانيون على أعدائهم . **فعندما علم أهل دمشق بانتصار السلطان العثماني سليم على الخارجي الشاه إسماعيل ملك الدولة الصفوية عام ٩٢٠هـ فرحوا**[٧٩] ، **فهم يعرفون أن الشيعة لم يكونوا يخفون عداءهم للإسلام والمسلمين السنيين** .

يروي كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » أن سلطان المماليك الغوري قد جمع القناصل الأوروبية في الاسكندرية ودمشق وطرابلس عام ٩١٦هـ وهددهم بالشنق . والسبب أن نائب البيرة المملوكي **قبض على جواسيس الشاه إسماعيل الصفوي وهم يحملون رسائل مضمونها أن يخبر القناصل حكوماتهم الأوروبية بأن عليها إرسال حملات بحرية على العثمانيين والمماليك معا ليقوم الشاه إسماعيل بالزحف ومن معه من العساكر عليهم من جهة البر**[٨٠] .

عندما وصلت إلى السلطان الغوري في القاهرة (بعد شهر من اجتماعه بالقناصل) أخبار انتصار الشاه إسماعيل على ملك التتار ازبك خان ، تأثر الغوري لذلك . إذ أن الشاه كان مشغولا عن المماليك بحروبه مع التتار . أما وقد هزمهم ، فلا بد أنه سيلتفت إلى المماليك[٨١] .

هذه الحقائق التاريخية لم يذكرها كتاب « رجال مرج دابق » . **أن المصادر التاريخية**

لم تؤكد وجود اتفاق بين الغوري وشاه إسماعيل[٨٢] ولو كان هناك أي اتفاق لأمكن لخاير نائب حلب أن يبين ذلك في الرسالة الموجهة إلى السلطان العثماني سليم[٨٣] .

* *

هذا عن دولة المماليك ، فماذا عن الدولة العثمانية ؟ إن الاخوّة الإسلامية توجب علينا أن تبرز الجوانب المضيئة في الدولة العثمانية[٨٤] **لقد نشأت الدولة العثمانية إسلامية المنطلق والراية والهدف[٨٥] . فقد أوصى عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة ابنه أورخان بأنَّ نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقه سيسأله الله عنها[٨٦] .**

لقد تمكنت الدولة العثمانية الإسلامية **في أقل من قرنين من الزمن أن تمد جناحيها شرقا وغربا وجنوبا لتصل إلى أبواب فيينا رافعة راية الإسلام على ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا** . كذلك امتدت هذه الدولة الإسلامية إلى الأرض الممتدة **من شمال القفقاس شمالا حتى الصحراء الافريقية جنوبا وحدود المغرب الأقصى غربا . كما أنها وصلت شرقا إلى بلاد فارس وجبال كردستان[٨٧] .**

هل ينسى التاريخ الإسلامي « فتح القسطنطينية » على يد محمد الفاتح وجيش الدولة العثمانية الإسلامية ، تحقيقا لحديث الرسول الكريم ﷺ : « لَتُفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »[٨٨] ، وما كان لهذا الفتح من تأثير وردود فعل في العالم الإسلامي وعند الفرنج وأعداء الله ؟

ثم بدأت الدولة العثمانية تتعرض لمكائد أعداء الإسلام ، وخاصة اليهود ، حتى خلع السلطان عبد الحميد إيذانا بإسقاط الخلافة العثمانية . وحتى في تلك الفترة الحرجة التي تآمر فيها أعداء الإسلام للإطاحة بهذه الدولة الإسلامية وانتهاء الخلافة الإسلامية ، **وقف السلطان عبد الحميد الثاني وقفة المسلم الذي يرفض أن يساوم على فلسطين . كتب في مذكراته .**

« وانتظم يهود العالم وسعوا ــ عن طريق المحافل الماسونية ــ في سبيل (الأرض الموعودة) . وجاءوا إليّ بعد فترة وطلبوا مني أرضا لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة ، وبالطبع رفضت»[٨٩] .

أحب هنا ، وبعد إظهار الحق ، وإبراز ما كان يجب على كتاب « **رجال مرج دابق** » إبرازه ، أن اقتطف فقرات من الكتاب ليطلع عليها القاريء ويسأل نفسه ما إذا كانت هذه مما يصلح أن يُورَد في كتاب موجه للفتيان :

يقرأ الفتيان عن السلطان سليم :

« شق طريقه إلى العرش سابحا في بحر من دماء آل عثمان ، شأن كل جبار لا يحترم المودة ، ولا يقدس صلة الدم ، أجبر أباه وهو شيخ ضعيف هدَّه الحزن على فقد خمسة من أبنائه ــ على التنازل عن العرش ، بعد أن حاربه وهزمه ، ... »(٩٠) .

أما عن سلطان المماليك الغوري ، فيطلع الفتيان على جانب من العز الذي كان يعيشه :

« وتمتد الموائد وعليها أشهى طعام وأحلى شراب وحولها أجمل الوجوه وأعذب الألحان : المغنون والمغنيات وضرب الطنبور وعزف العود . تأود الخصر وهز الردف ونفخ الناي وحرارة الخمر ... »(٩١) .

كذلك يقرأون عن **الملكة شجرة الدر** بعد موتها :

« وانتهى أمر ذات الحجاب الجميل والستر الجليل بجثة تطير حولها الجوارح ، ويعبث اللصوص بحرمتها ، فيسرقون بعض ما زينت به ملابسها الداخلية من حلي ، ولم يبق منها سوى أشلاء ممزقة حملوها في قفة ودفنوها »(٩٢) .

ويطلع الفتيان على **مقتل الناصر ابن الملك الأشرف قايتباي** :

« وكان الأمير « طومان باي الأول » يعسكر في الطريق بين الجيزة والقاهرة ، ليحيّي موكب السلطان ، وألح عليه أن يشرف المعسكر بالزيارة ، ولكن « الناصر اعتذر » بضرورة العودة إلى القاهرة قبل المساء ؛ ثم قبل ــ بعد إلحاح ــ أن يأكل قصعة لبن قدمها له « طومان الأول » الذي أمسك بلجام فرسه وهو يأكل ، وفجأة خرج خمسون مملوكا من خيمة قريبة ، أحاطوا « بالناصر » ، وانهالوا عليه بسيوفهم »(٩٣) .

ويقرأون عن الهدية التي قدمها السلطان العثماني سليم إلى سلطان المماليك الغوري :

« وتقدم أربعة من العبيد يحملون صندوقا خشبيا متوسط الحجم ، فتحه السفير وأخرج منه ثلاثة رؤوس ... »(٩٤) .

ونقرأ ، مثلما يقرأ الفتيان ، عما فعله السلطان سليم بالبعثة التي أرسلها السلطان الغوري إليه :

« وبعد أن أطاح السياف برؤوس أعضاء البعثة ، أمر الخنكار ، فجاءوا برئيسها « مغلباي » وحلقوا له ذقنه ، وألبسوه طرطورا ، وأركبوه على حمار أعرج ، ... »(٩٥) .

يتعرف فتيان هذه الأمة ، وأمل مستقبلها على أبطال أصبحت قصص القتل وسفك الدماء عندهم أمرا عاديا ، حتى أنهم قاموا بتمثيل قصة تمثيلا حقيقيا :

« حدث أن اجتمع عدد منهم يلعبون تحت ضوء القمر في باحة أمام حارتهم فألفوا مسحرية ، ومثل أحدهم دور ملك الأمراء « خاير بك » وقام آخر بدور والي القاهرة ، وخطف طفل عمامة آخر ، فقبض الوالي على اللص ، وأحضره بين ملك الأمراء ، فأمر بأن يخوزقوه ، فدق له الأطفال عصا وأجلسوه عليها حتى مات .. **كأنّ القتل قد هان في مصر حتى على الصغار** .. »(٩٦) .

فكيف سينظر أطفالنا إلى تاريخ أمتهم بعد هذا ؟ هل نستطيع أن نجعلهم يعتزون بهذا التاريخ وهو كما قدمه كتاب « رجال مرج دابق » ؟ فلنتق الله في أطفالنا .

* * *

العلـوم عند المسـلمين :

الكتب التي توجهت للناشئة التي تناولت تاريخ العلوم عند المسلمين تؤكد على حقيقة أساسية وهي أن المسلمين كانوا حملة شعلة الحضارة ، وأنهم استطاعوا عبر القرون أن يحققوا إنجازات علمية تدل على عبقرية وإبداع وتفان وإخلاص . هذه الإنجازات العلمية في مختلف فروع العلوم هي حلقات في سلسلة شاركت فيها أمم، وما تزال، وإن كان دور العلماء المسلمين متميزا بصورة جلية . فقد حققوا ما حققوه لأنهم أدركوا دورهم في تقديم العلم الذي تنتفع به البشرية .

أعرض في هذا المجال **ثلاثة كتب متميزة من إنتاج دار ثقافة الأطفال في العراق .**

١ ـ « الخــازن »

يتناول الكتاب إنجازات **عالم مسلم غير عربي** كما ذكر الكتاب (وان كان عربي اللسان والقلم) هو الخازن الذي اشتهر في مجال علم الفيزياء ، وخاصة في علم الميكانيكا . يخبرنا الكتاب أن هذا العالم قد بحث في « وزن السوائل وكثافتها والضغط الذي تحدثه وإمكان تحريك بعض الآلات بواسطة قوة السائل »[٩٧] . **هكذا يكون الخازن قد سبق العالم الإيطالي توريشللي في إنجازاته تلك**[٩٨] كذلك بحث هذا العالم في **قوة دفع الهواء**[٩٩] ، ووضع ميزانا خاصا لوزن الأجسام في الماء والهواء ، كما أوجد درجة الكثافة الكثير من العناصر والمركبات[١٠٠] .

إلى جانب الإشادة بانجازات هذا العالم ، **لا ينكر الكتاب فضل بعض العلماء من غير العرب والمسلمين** ، إذ يبين على لسان إحدى شخصياته : « وإذا كنا نؤمن بأن العبرة هي بالاختراع لا بمن اخترعه ، **لكننا لا نحب أن ينكر أحد فضل العلماء العرب أمثال الخازن والبيروني وابن سينا ، كما أننا لا ننكر فضل غاليلو ونيوتن وباستور** .. على تقدم العلوم وازدهارها »[١٠١] . **مع ملاحظة أن البيروني وابن سينا غير عربيين ، بل هما مسلمان** .

يلمس القاريء الفتى التسامح والموضوعية والروح العلمية في هذا الكتاب ، دون إنكار لفضل العلماء المسلمين الذين آثروا الحضارة الإنسانية . كما يلمس القاريء الإهتمام الواضح في الرسومات التوضيحية التي تعتبر أساسا في الكتاب .

* *

٢ ـ « أول إنسـان يطير » :

يقدم الكتاب مادة علمية مثيرة عن **عباس بن فرناس** الذي كان أول من حاول الطيران مستخدما أجنحة مثل الطائر . يمتاز الكتاب بأسلوب عرضه الممتع المشوق والرسومات المتفردة التي تعد جزءا لا يتجزأ من الكتاب .

يعرض الكتاب لانجازات هذا العالم : **صنع أنموذج عن السماء بشمسها وقمرها ونجومها**[١٠٢] ؛ **صنع الزجاج من الحجارة**[١٠٣] ؛ **عمل آلة لمعرفة الوقت**[١٠٤] ؛ **الطيران باستخدام أجنحة مثل الطائر**[١٠٥] .

تبرز في الكتاب الروح العلمية التي ينبغي على الناشئة التحلّي بها ، كأنما الكتاب يمهد لهم الطريق الصحيح إلى العلم . فعندما يقول صديق العالم عباس بن فرناس بأنه (أي عباس) قد اخترع الزجاج ، يجيب ابن فرناس بتواضع وروح علمية : « **كن علميا ياقيس : لست أنا مخترع الزجاج الأول ، فالزجاج معروف منذ القديم ، وقد استعمله العرب في مشرق ومغرب ، ولكني اخترعت صنع الزجاج من الحجارة .. هذا هو الشيء الجديد** »[١٠٦] . هو توجه سليم من أجل الناشئة الذين نرى فيهم أمل هذه الأمة ليحققوا ما حققه السلف الصالح بعون الله .

* *

٣ ــ « أبو بكر الرازي » :

يقدم الكتاب بعضا من إنجازات هذا العالم الكبير **الذي لم يكن عربيا ، كما ذكر الكتاب**[١٠٧] ، فقد ولد في الريّ (قرب طهران) ولكنه انضم بإسلامه ولسانه العربي إلى الحضارة الإسلامية . فتركت أعماله أبلغ الأثر ، ليس فقط على الحضارة الإسلامية ، ولكن على الحضارة الإنسانية بأكملها .

يرتكز الكتاب على مقولة أن أطفال هذه الأمة يحبون أمتهم وهم شديد الاعجاب بها ويتباهون بأمجادها[١٠٨] .

إن أول ما يتعرف إليه الفتى المهتم بالطب هو ما حققه العلماء المسلمون من إنجازات في مجال الطب . يقول الأخ الكبير لأخيه الصغير المهتم في الطب : « (رأيت) أن أول ما ينبغي أن تعرفه في الطب **فضل طبيب جليل .. من أمتك** »[١٠٩] .

يعرض الكتاب ما حققه الرازي في ميدان الطب :

(أ) **كتابه « الحاوي » الذي دُرِّس في جامعات أوروبا**[١١٠] .

(ب) **إيجاده الطب السريري**[١١١] .

(جـ) **فصله الطب عن الصيدلة**[١١٢] .

(د) **تفريقه بين الحصبة والجدري**[١١٣] .

(هـ) **طريقته المبتكرة في اختيار المكان الملائم لبناء المستشفى**[١١٤] .

ولم يكن الرازي مشهورا في الطب فقط ، **بل إنه قد اشتهر في علم الكيمياء أيضا**[١١٥] .

ولعل من المفيد الإشارة إلى الطريقة الذكية التي قدم بها المؤلف أحد إنجازات الرازي ، دون أن نَغفل عن الرسومات التي استطاعت أن تكون جزءا أساسيا في المادة ، فتفاعلت مع المادة تفاعلا نادرا ما نجد نظيره في الكتب العربية الموجهة للأطفال . يقول الأخ الكبير (المكلف باقامة معرض عن الرازي) لأخيه الصغير : « قالوا لي اصنع مشهدا وتماثيل حيث الرازي يجري العملية ويدس الفتيلة في الجرح ، **فقلت لأن أجعل المشهد عصريا أحسن ، لأدل على أن الرازي موجود بعلمه أبدا ، وأن حضارة آبائنا خالدة** »(١١٦) .

هذا توجه تربوي سليم ينبع من تقدير الكاتب لأمته وإنجازاتها الرائدة . كما أنه ربط ذكي بين الماضي والحاضر . فانجازات أجدادنا الصالحين يجب ألا تكون مجرد ذكرى من الماضي نكتفي بأن نتفاخر بها ، بل يجب أن تكون حافزا لنا لنكمل ما حققوه .

الكتب الثلاثة نماذج جيدة في عرض تاريخ العلوم عند المسلمين . فالمادة مبسطة بأسلوب مشوق وممتع ومفيد ، مع الاختيار الموفق للنقاط المراد إبرازها . إنها لا تتعامل مع تراث هذه الأمة بطريقة تقليدية أقرب ما تكون إلى السلبية . فلا تكتفي بذكر ما أنجزه العلماء المسلمون وأثر إنجازاتهم الرائدة على الإنسانية ، **بل تشجع الأطفال ليتابعوا المسيرة بعون الله** .

نرجو ألاّ يظن القاريء الكريم أن ما ورد في هذه الدراسة إنما هو دعوة قوية إلى إغفال الجوانب السلبية في تاريخنا . إن التاريخ الإسلامي تاريخ صنعته أمة ، والأمة غير منزهة عن الأخطاء ، باستثناء رسولنا الكريم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى . **إلا أننا يجب أن نذكر أن الأخطاء لها أجرها أيضا ، إذا ما تم الاجتهاد وفق أصوله** . كما أننا لا بد أن نذكر دائما أن كل من يحيد عن الحق في مسيرة هذه الأمة يضلّه الله ويخزيه .

فإذا كانت هناك أخطاء من رجال صدقوا الله **نذكرها إذا كان ذكرها ضروريا** ، ولكننا **لا نبالغ** في عرضها وإن كانت جزءا من التاريخ ، لأننا هنا نقدم تاريخنا لأطفالنا . وإذا كان هناك زيغ عن الحق نذكره على أنه اتباع الهوى والضلال . ولكن في هذا وذاك نكون واثقين مما نذكر **معتمدين على مصادر موثوقة** ليست مشبوهة .

ويجب أن نراعي دائما الجوانب الإيجابية ، وما أكثرها في تاريخنا الإسلامي ! فنحن في مرحلة أشد ما نكون فيها حاجة إلى الاقتداء بالسلف الصالح في مسيرتهم الخيّرة التي اتسمت بنصرة الحق . والله الموفق .

* * *

نتائــج

لا بد أن ينبع تقديم التاريخ الإسلامي للأطفال ، وخاصة في فترته المبكرة ، من قناعة بأنه تاريخ صنعه رجال صدقوا الله ونصروه وأخلصوا النية فنصرهم الله ، فكانت انجازاتهم في كافة ميادين الحياة خير ما يقدم .

ومن الضروري أن ينشأ أبناء هذه الأمة معتزين بهذا التاريخ لأنه القدوة الحسنة . لذا كان من واجب الكتّاب أن يتواخوا الدقة والحرص في قراءة مصادر التاريخ الإسلامي . ومن واجبهم أن يراعوا الموضوعية **دون تهويل للأخطاء** ، وأن يشيروا إلى **أن السلبيات في هذا التاريخ هي من باب الزيغ عن الحق .**

وعلى الكتّاب تقع مسؤولية ربط هذا التاريخ بالحاضر والمستقبل . أما واجب معلمي مادة التاريخ فهو الاستفادة من وسائل تربوية وتعليمية من شأنها أن تحبب الأطفال إلى تاريخهم .

* * *

الهوامش

(١) محمد ٧ .

(٢) انظر « نشاط الطفل التمثيلي في التربية » ص١٨٥ — ١٩٦ .

(٣) انظر Developments in History Teaching P. P. 69 - 74

(٤) أبو ذر الغفاري (صفحة الغلاف الأخيرة) .

(٥) المرجع نفسه ص ١٣ .

(٦) المرجع نفسه ص ٨٩ .

(٧) المرجع نفسه ص ١٢ .

(٨) المرجع نفسه ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٩) المرجع نفسه ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(١٠) المرجع نفسه ص ٦٧ .

(١١) المرجع نفسه ص ١٠٠ .

(١٢) عثمان بن عفان ص ٢٠ .

(١٣) المرجع نفسه ص ٣٧ — ٤٠ .

(١٤) المرجع نفسه ص ٤١ — ٤٣ .

(١٥) المرجع نفسه ص ٤٤ — ٤٥ .

(١٦) المرجع نفسه ص ٥٣ .

(١٧) المرجع نفسه ص ٥٧ .

(١٨) المرجع نفسه ص ١٤ .

(١٩) المرجع نفسه ص ٢٨ — ٣٠ .

(٢٠) المرجع نفسه ص ٥١ .

(٢١) Shorter Encyclopaedia of Islam p. 615 - 617

(٢٢) لكاتب هذه السطور دراسة عنوانها « عثمان بن عفان في أدب الأطفال » تعرض الاتهامات التي وجهت إلى عثمان ومن حوله في ١٢ كتابا للأطفال .

(٢٣) العواصم من القواصم ص ٦١ ــ ١٤٧ ، انظر أيضا شروحات محقق الكتاب محب الدين الخطيب

(٢٤) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ .

(٢٥) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٧١ ــ ٢٧٧ .

(٢٦) المراجع الأولى في تاريخنا : تاريخ الأمم والملوك ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

(٢٧) عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنه ص ١٩ .

(٢٨) تاريخ الطبري ج٤ ص ٣٤٠ ــ ٣٤١ .

(٢٩) الأذكياء ص ٦٠ ــ ٦١ .

(٣٠) الحجرات ١١ .

(٣١) البداية والنهاية م٥ ج١٠ ص٢٢٢ .

(٣٢) تاريخ الطبري ج٨ ص ٣٢٠ ــ ٣٢٢ .

(٣٣) المصدر نفسه ج٨ ص ٣٠٨ .

(٣٤) البداية والنهاية م٥ ج١٠ ص٢٢٣ ــ ٢٢٤ .

(٣٥) تاريخ الطبري ج٨ ص ٣٤٧ .

(٣٦) حكايات رمضانية ص ٨ .

(٣٧) الفتح ١ .

(٣٨) حول إعادة بناء وتدوين التاريخ العربي ص ١٤٢ .

(٣٩) رجال مرج دابق (صفحة الغلاف الأخيرة) .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٠، ١٢، ١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٤١، ٤٢، ٥٤، ٦٣ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٣ .

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٨ ــ ١٩ .

(٤٣) المرجع نفسه ص ١٩ .

(٤٤) المرجع نفسه ص ٨٠ .

(٤٥) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٤٦) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٤٧) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٤٨) المرجع نفسه ص ١٣ .

(٤٩) المرجع نفسه ص ١٩ .

(٥٠) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٥١) المرجع نفسه ص ٢٣ .

(٥٢) المرجع نفسه ص ٦٧ .

(٥٣) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٥٤) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٥٥) سبأ ٢٨ .

(٥٦) الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٥ .

(٥٧) البداية والنهاية م٧ ج١٣ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

(٥٨) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٢٦٠ ــ ٢٦٦ .

(٥٩) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٢٦٨ و ٢٧٥ و ٢٩٢ .

(٦٠) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٢٧٨ و ٢٨٤ و ٢٨٧ و ٢٩١ .

(٦١) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٣٢٣ .

(٦٢) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ .
(٦٣) المرجع نفسه م٧ ج١٣ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ .
(٦٤) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٥٩ .
(٦٥) المرجع نفسه ص ١٦٠ .
(٦٦) المرجع نفسه ص ٢٣٦ .
(٦٧) المرجع نفسه ص ٢٣٧ .
(٦٨) رجال مرج دابق ص١٩ .
(٦٩) المرجع نفسه ص ٨١ ــ ٨٢ .
(٧٠) المرجع نفسه ص ٩١ و ٩٤ .
(٧١) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٩٧ ــ ٤٠٥ و ص ٤١٦ .
(٧٢) المرجع نفسه ص ٤٠٠ ــ ٤٠٥ و ص ٤١٦ .
(٧٣) رجال مرج دابق ص ٤٥ ــ ٥١ .
(٧٤) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٨٠ و ٤٠٨ و ٤٢١ .
(٧٥) المرجع نفسه ص ٤١٧ ــ ٤١٨ .
(٧٦) رجال مرج دابق ص ٦٤ ــ ٦٥ .
(٧٧) المرجع نفسه ص ٦٤ ــ ٦٥ .
(٧٨) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٦٧ .
(٧٩) أعلام الورى ص ٢٠٦ .
(٨٠) بدائع الزهور في وقائع الدهور ج٤ ص ٢٠٥ .
(٨١) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٠٥ .
(٨٢) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٩٣ .
(٨٣) المرجع نفسه ص ٣٩٣ .
(٨٤) جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ص ٣٢ .
(٨٥) المرجع نفسه ص ٢١ .
(٨٦) المرجع نفسه ص ٢١ .
(٨٧) الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ص ١٤ .
(٨٨) مسند الامام أحمد ج٤ ص ٣٣٥ .
(٨٩) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٦٥ .
(٩٠) رجال مرج دابق ص ١٥ .
(٩١) المرجع نفسه ص ١٧ .
(٩٢) المرجع نفسه ص ١٩ .
(٩٣) المرجع نفسه ص ٢٦ .
(٩٤) المرجع نفسه ص ٦٥ .
(٩٥) المرجع نفسه ص ٧٥ .
(٩٦) المرجع نفسه ص ١٢٧ .
(٩٧) الخازن ص ١٧ .
(٩٨) المرجع نفسه ص ١٧ ــ ١٨ .
(٩٩) المرجع نفسه ص ١٨ .
(١٠٠) المرجع نفسه ص ٢١ .

(١٠١) المرجع نفسه ص ٢١ .
(١٠٢) أول إنسان يطير ص ٨ ــ ٩ .
(١٠٣) المرجع نفسه ص ١١ .
(١٠٤) المرجع نفسه ص ١٣ .
(١٠٥) المرجع نفسه ص ١٥ ــ ٢٤ .
(١٠٦) المرجع نفسه ص ١١ .
(١٠٧) أبو بكر الرازي ص ٥ .
(١٠٨) المرجع نفسه ص ٩ .
(١٠٩) المرجع نفسه ص ٩ .
(١١٠) المرجع نفسه ص ١٠ ــ ١٣ .
(١١١) المرجع نفسه ص ٢٠ ــ ٢١ .
(١١٢) المرجع نفسه ص ٢٢ .
(١١٣) المرجع نفسه ص ٢٤ .
(١١٤) المرجع نفسه ص ٢٦ ــ ٢٨ .
(١١٥) المرجع نفسه ص ١٤ ــ ١٦ .
(١١٦) المرجع نفسه ص ١٩ ــ ٢٠ .

* * *

المصـادر والمراجـع

المصـادر :

ـــ القرآن الكريم

ـــ ابن إياس ، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ٨٥٢ ـــ ٩٣٠هـ ؛ تحقيق محمد مصطفى
بدائع الزهور في وقائع الدهور . ـــ ط٢ . ـــ القاهرة : عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ .
ـــ النشرات الإسلامية .

ـــ ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني ، ١٦٤ ـــ ٢٤١هـ
مسند الإمام أحمد . ـــ بيروت : المكتب الإسلامي ؛ دار صادر ، [- ١٩] .

ـــ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، ٢٢٤ ـــ ٣١٠هـ ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
تاريخ الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ـــ ٧ ط٢ . ـــ بيروت : دار سويدان ،
١٩٦٧ .

ـــ ابن طولون ، شمس الدين محمد بن علي بن محمد ، ٨٨٠ ـــ ٩٥٣هـ؛ تحقيق محمد
أحمد دهمان اعلام الورى بمن ولّي نائبا من الأتراك من بدمشق الشام الكبرى . ـــ
دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٤ . ـــ مطبوعات مديرية إحياء التراث
القديم ؛ ٨ .

ـــ عبد الحميد الثاني ؛ ترجمة وتعليق محمد حرب عبد الحميد

ـــ مذكرات السلطان عبد الحميد . ـــ القاهرة : دار الأنصار ، ١٩٧٨ .

ـــ ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري ، ٤٦٨ ـــ ٥٤٣هـ ؛ تحقيق محب الدين الخطيب . العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ . ـــ ط٤ . ـــ [القاهرة] : المطبعة السلفية ، (١٩٧٦) .

ـــ ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، ٧٠١ ـــ ٧٧٤هـ البداية والنهاية . ـــ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥ .

ـــ محمد ماهر حمادة
الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي ٦٥٦ ـــ ٩٢٢هـ ، ١٢٥٨ ـــ ١٥١٦م : دراسة ونصوص . ـــ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ .

المراجع باللغة العربية :

ـــ أكرم حسن العلبي
دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦ ـــ ٩٢٢هـ ، ١٥٠٠ ـــ ١٥٢٠م : دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية . ـــ دمشق : الشركة المتحدة ، ١٩٨٢ .

ـــ جعفر صادق محمد ؛ رسوم مؤيد نعمة
الخازن . ـــ بغداد : دار ثقافة الأطفال ، ـــ ١٩٨ . ـــ السلسلة التاريخية ؛ ٥

ـــ جمال أبو رية ، معد
الأذكياء . ـــ القاهرة : الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢

ـــ رشاد دارغوث
عثمان بن عفان . ـــ ط ٣ . ـــ بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٣ . ـــ مآثر الصحابة ؛ ٣ .

ـــ زياد أبو غنيمة
جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين والأتراك . ـــ عمان : دار الفرقان ، ١٩٨٣ . ـــ دراسات اسلامية هادفة ؛ ٧ .

ـــ صلاح عيسى
رجال مرج دابق : قصة الفتح العثماني لمصر والشام . ـــ بيروت : دار الفتى العربي ، ١٩٨٣ . ـــ مكتبة التاريخ .

ـــ عز الدين إسماعيل ، ... وآخرون
أبو ذر الغفاري . ـــ بيروت : دار العودة ، ١٩٧٤ . ـــ أبطال العرب .

ـــ علي حسون
الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية . ـــ ط٣ . ـــ بيروت ؛ دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٩٨٣ .

ـــ محمد موفق سليمة
عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنه . ـــ دمشق : دار الإمام البخاري ، ١٩٧٩ . ـــ سلسلة العشرة المبشرون بالجنة ؛ ٣ .

ـــ منذر الشعار ؛ رسوم طالب مكي
أبو بكر الرازي . ـــ بغداد : دار ثقافة الأطفال ، ١٩٨١ . ـــ السلسلة التاريخية ؛ ١٦

ـــ رسوم مؤيد نعمة
أول إنسان يطير . ـــ بغداد : دار ثقافة الأطفال ، ـــ ١٩٨ . ـــ السلسلة التاريخية ؛ ٩

المراجع باللغة الانجليزية

- Shorter Encyclopaedia of Islam . - Leiden: Brill, 1974

- Steele, Ian
Developments in history teaching . - Somerset: Open Books, 1983

الدوريـات :

ـــ حكايات رمضانية الرأي (الأردن) م ١٥ ع ٥٨١٥ ١٩٨٦/٥/٣٠ ص٨

ـــ شاكر مصطفى
حول إعادة بناء وتدوين التاريخ العربي : أزمة التاريخ ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية م١ ع٣ ١٩٨١ ص ٤٢ ـــ ١٥٧ .

ـــ محب الدين الخطيب
المراجع الأولى في تاريخنا : تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جعفر الطبري ٢٢٤

ـ ٣١٠ مجلة الأزهر ج٢ ٢٤ ج١ ٢١ ايلول ١٩٥٢ ص ٢١٠ ـ ٢١٥ .

ـ محمد بسام ملص
أثر نشاط الطفل التمثيلي في التربية ، رسالة الخليج العربي م٦ ع١٧ ١٩٨٦ ص١٨٥ ـ ١٩٦

